لقتالنا، **وما من واحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاته**، وفيه مخالفة أو عدم مراعاة لأوامر سيده، وهذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مراراً من قبل وفي مناسبات عدة، فهو الذي يضع هذه الممالك تحت إمرته، والآن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحة لأن يبذل كل جهد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم والتصدي له في تقدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية، التي ستوصله حتماً إلى أوج طموحاته، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة سيبرهن على أنه عدو مرعب لنا».) [(٤٠٦-٤٠٨) William of Tyre، / حطين/ زكار/ ١٩، ١٠٢ - ١٠٤].

باب: نهاية جهد الرافعة

لا تجاوز بطموحك سقف قدرتك

وكنا في فصل سابق قد أشرنا إلى استراتيجية صلاح الدين لضبط العمل وتوحيد الجهد والتي كان أحد محاورها ترشد رؤية الأفراد لمصالحهم الخاصة والارتقاء بها دون إغفالها لتصب في نهر مصالح الأمة.

وكنا قريبا قد دحضنا خطأ من ينكر وجود خطة عبقرية من وضع صلاح الدين ومستشاره لتوحيد الأمة،

ومن لم يقنع بذلك ومازال في شك ويرى أن ذلك التصور هو محض ابتداع، (فعندهم لم يرد بخلد صلاح الدين فضلاً أن يعي أثر تضارب المصالح الذاتية والعامة على أفعال قادة ووجهاء الأمة).

فسنعيد التدليل على الرؤية الثاقبة لصلاح الدين الأيوبي التي مكنته من اللعب على أوتار المصالح بعد ترشيدها، بل والأكثر من ذلك سنراه يدرك النقطة التي عندها قد تكسر الرافعة فيتحول من الصلابة العسكرية إلى اللين الدبلوماسي.

لذا نورد هنا مساجلة تاريخية بين صلاح الدين وهؤلاء يتضح بها محاولته ربط مصالح هؤلاء بالمسئولية الشرعية لهم، وحين يخذلونه يتأسف على توقعه عودتهم لحالتهم الأولى من تغليب خطوط النفس على الواجب الشرعي الآمر بالوحدة الشرعية لتكون الأمة صفًا واحدًا أمام عدوها.

هذه المساجلة التي كانت بعد الحشود الجبارة التي بعثت بها أوربا كرد فعل على تحرير المسلمين للقدس وما صاحب ذلك من إثارة للحمية الجاهلية فقد (قام كونراد - أحد أفراد الأسرة الملكية للقدس - مع المقدمين الجديدين للاستبارية والداوية وجميع الأساقفة اللاتين، بمراسلة ملوك

أوربة الغربية والبابوية ورجال الإقطاع وسواهم طالبن النجاة، حتى ليروي أن كونراد «صور القدس في ورقة عظيمة وصوّر فيه القيامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي قبر فيه بعد صلبه، بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصور القبر، وصور عليه فرسًا عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطئ قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة ـ وراء البحر في الأسواق والمجامع، والقسوس يحملونها، ورؤسهم مكشفة، وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم، فإنها اصل دينهم، فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى». كما أرسل كونراد رئيس أساقفة صور واسمه جوسشوس إلى أوربا وحمله العديد من رسائل الاستغاثة. [حطين/زكار/ ١٧١].

جاءت هذه الحشود وحاصرت عكا وعقدت اتفاقية ثم أبادت هذه الحملة حامية عكا بمنتهى الوحشية غدرا، وكانت الوجهة بعد ذلك بديهة، إنها القدس.

اتخذ صلاح الدين قراره بالدفاع عن القدس وكان صلبا في موقفة من ريتشارد قلب الأسد فماذا حدث (لكن

هذا التصلب اضطر صلاح الدين إلى التخلي عنه عندما علم بنية رتشارد الزحف على القدس، وبعدما عرف موقف أمراء جيشه، فقد أراد اتخاذ موقف الدفاع داخل القدس وعقد لهذه الغاية مجلسًا حربيًا ضم كبار قادة جيشه وافتتح صلاح الدين ذلك المجلس بخطاب الحضور بقوله: «الحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذمكم، فإن هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم - والعياذ بالله - طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم بيت المال، والمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام».

ورد القادة على صلاح الدين بكلام حماسي عام طيبوا به خاطره، وتفرقوا عنه، ولكن ما لبثوا في مساء ذلك اليوم أن أبلغوه أنهم بعد اجتماعهم ببقية قادة الجيش، رفضوا فكرة أخذ الموقف الدفاعي» وقالوا: لا **مصلحة** في ذلك فإنا نخاف أن نحاصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع، والرأي أن نلقي مصافًا، فإن قدر الله تعالى أن يهزمهم ملكنا بقية بلادهم،

وإن تكن الأخرى سلم العسكر، ومضى القدس، وقد انحفظت بلاد الإسلام بعساكرة مدة بغير القدس».

ويصف ابن شداد حال صلاح الدين عندما بلغه موقف القادة هذه بقوله: فشق عليه هذه الرسالة، وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح، **وهي من الليالي التي أحياها**، وكان عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال، ولما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة».

ومن جديد ثم استئناف المفاوضات بين الطرفين التي أثمرت أخيراً باتفاق عرف باسم «صلح الرملة» تمت الموافقة عليه «صبيحة الثالث والعشرين من شعبان» سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (٣ أيلول ١١٩٢م).....بعدما أبرم الصلح «غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى». لكن صلاح الدين كان على عكس الناس حزيناً ذلك أنه كما ذكر ابن شداد «إن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي – رحمه الله في بعض محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوي هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته – يعني حصته – وقال: لا أنزل، ويهلك المسلمون». [حطين/ زكار/ ١٨٢-١٨٤].

هذه المرة لم يكن التحدي هو مصالح الذوات فقط إنما هو خطر يتهدد أصل الذوات، المخاطرة هذه المرة ليس حدوث الفشل أو الهزيمة إنما الإبادة.

مثل هذا التحدي لا تكفي له مثل هذه المعالجة ولاتصلح له مثل هذه النوعية من الرجال.

إنها تحتاج لتربية أعمق وأطول ولرجال من نوعية أخرى إنها نوعية الرجال من أمثال أهل بدر أو هؤلاء الذين اجتازوا مصفاة طالوت، أو قوم دوافعهم على شاكلة جيش يوشع بن نون، أو صدر المرابطين، أو (مشيخة الغزاة) الأندلسية، أو إخوان الجزيرة.

إن ثلاثية القيادة في الحالين واحدة لكن شتان بين النسب في خلطها.

فالغذاء الملكي تنال منه يرقات الشغالات لكن الملكات لا تأخذ غيره والذكور أكثر من هذه وأقل من تلك.

هذه نقطة فارقة يجب أن نضعها في حسباننا ونحن نعتبر لنضع برنامج عصرنا.

فمن لا يملك أصلاً لبلورته فهيهات أن يجاب حين يصرح حين الكرب (يا أصحاب البيعة).

باب: واقع التحدي اليوم وبالأمس

الثالوث القذر

إن حال الأمة لا يخف على أحد، سواء واقعها المعاش أو تصورها لحقيقة دينها المفروض، ولو حدثت مقارنة في ذلك المضمار بين الخلف والسلف لظهرت أكثر وضوحا تلك الفجيعة الكبرى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [سورة مريم: ٥٩-٦٠]. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٩ - ١٧٠].

بل أن جناب التوحيد ذاته الذي هو أخص خصوصيات ذلك الدين لم يسلم، فهؤلاء يطلبون من الأضرحة ما كان يطلب من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وهؤلاء لا يجدون غضاضة في حمل الكافة على التحاكم إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به.

وكثيراً ممن سلم قد تجرع من الشهوات ما جعله في غفلة ومن الشبهات ما جعله في ضلال.

وبالرغم من كل ذلك تجد التبجح بلسان الحال بل أحياناً بلسان المقال (سيغفر لنا) وفي الاعتماد على الأماني دون عمل يصدقها، استوينا نحن وأهل الكتاب ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٢٣].

هذه الحالة المزرية تعمل على استدامتها وترسيخها تحالف الأيدي القذرة، التي تعمل أحياناً في خفاء وعند التمكن تستعلن، يد العدو الخارجي المستكبر الخطير، ويد العدو الداخلي المنافق المهيمن الأخطر، دمية الأول، الفرق الضالة ونداء الغواية المعسول، من أجابهم استدرج للباب، باب جهنم، بالأمس كانت الفرق كالمعتزلة الذين يقدمون العقل على النقل، والباطنية وما أدراك ما الباطنية، والخوارج يكفرون بالمعصية، والمرجئة لا يكفرون من كفره الشرع، و... و.... واليوم يلحق بهم دعاة الشعوبية في ثوبها الجديد، وغيرهم من فصائل العلمانية، كالغوغائية، والإباحية، .... الخ.

هذه الفرق لا تدع فرصة كالسوس ينقض على آل بيت تركوا قصرهم الذهبي للأكواخ الخشبية.

ويتخفى كل هؤلاء خلف عباءة (بلعام) تصديقًا لقول المصطفى ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**».

وهناك من الشيوخ من هو حريص على أن يكون ذلك الرجل ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف ١٧٥-١٧٦].

ويتحالف كل هؤلاء أو بالأحرى يستخدمون أهل البغي والشهوات، أو كما يقول القاضي الفاضل في رسالة على لسان صلاح الدين للخليفة العباسي: (... وإذا احتمعت في الشام أيد ثلاث: يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة، نهض الكفر بتثليثه، وقصرت الإسلام يد مغيثه). سبقت

كل هؤلاء يتربصون بأي محاولة لتغيير الأوضاع. تجري محاولات تلوا محاولات للبعث تواجه قبل الترعرع بالإجهاد أو التضييق، بالأمس وجهت السهام لجهود نظام الملك وابنه فخر الملك و... و... و....، واليوم لا يخفى

ما يحدث بين الحين والحين، فأحجار المنجنيق لا يسلم منها البنا أو البناء.

(مثل أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره)

والمد والجذر سنة في حياة الأمم ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٠].

لكن لا بد من فئة تثبت حين الهزيمة وتصمد عند الخور وتتيقن الوعد عندما يظن بالله الظنون، يستطيل عليها عدوها فتعتصم بـ ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ فهي دائماً تستجيب وتجتمع بالرغم من القرح، فإنما هي جولة حتى وإن وصل الأمر لحال الردة العامة الحقيقية – التي لم تحدث والحمد لله إلا مرة واحدة – جولة لها ما بعدها فلا خوف طالما تنادت الفرقة الناجية فتولت القيادة الطائفة المنصورة.

هكذا نكون قد اقتربنا من جوهر المشكلة.

فمن يصلح الملح إذا الملح فسد؟

أن يوجد أن يتعارف هؤلاء فإذا تعارفوا اجتمعوا فتوحد جهدهم فتوحدت الأمة عليهم بإذن الله، هذا ما أمر به الشرع ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ**

ريحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولكن لكي يتم الشرع – أي شرع – لا بد له من رجال، فياله من دين لو كان له رجال.

ولكي يتم حمل القدر الكافي عليه لا بد من سياسة شرعية تجمع أصحاب الولايات من المسلمين، إذ أنه لا اعتبار لولاية منافق أو مرتد ولو حمل في يده صولجان السلطان.

امبراطورية الحارات

المشكلة أن العصر – كذلك العصر محل البحث – هو محل تلك الظاهرة التي أسماها البعض ظاهرة أمراء الأحياء الذين استعاروا الألقاب الفخمة أو أعطيت لهم من عصابتهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

يجتمعون في السمت لا في القلب فكانوا شيعًا فكان لابد من أن تحقق هذه المقدمات النتيجة ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ

﴿يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]. فهل ينتظر من شيع تحزبت على شخوص إلا بأس يكون بينهم.

اختزلوا الدين - لو كان ذلك على سبيل التخصص فلا بأس - ولكن هؤلاء اعتبروه مجرد مدرسة، وهؤلاء وجدوه تربية تربية مريد أعمى وشيخ لا يسأل، وهؤلاء يرونه فقط وزارة للشئون الاجتماعية، وهؤلاء قالوا السياسة السياسة، ثم تبحث عن المدرسة عن الحوزة الصوفية عن وزارة الشئون الاجتماعية فتجد أن الأكواخ تتشابه، أما السياسة فقد اشترطوا فيمن تصدى لها أن يكن أسمه: أحمد أو حسين ميكافيلي.

هذا عن الصغار فماذا عن بعض الكبار الذين عجزوا عن التحاور فيما بينهم لا أقصد الفصائل المختلفة بل داخل الفصيل الواحد.

فكان الاشتباك في صراع استبدلت وسائله - لنقص حجم ونوعية وقوة الولايات - فمن لا يملك السيف يملك لسانًا هو أحد من السيف له دوي أعلى من دوي القنابل.

صراع لا يمكن أن تكون حقيقته شعارات الحرب المعلنة، فابحث عن شيء آخر، طلب الزعامات والواجهات قد اختطلت بالرغبات الحقيقية الصادقة لنصرة الإسلام، فالمعارك لا تتم إلا داخل الجسد الواحد جسد أهل السنة

والجماعة وانقلبت الآية دستور الولاء والبراء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦]، استبدلت الآية وصارت القاعدة كن مع إخوانك من الخوارج وكن مع الطاغوت من المرجئة.

باب: بقدر صلاح الدين يكن صلاح الحال

إجتزاء الدين

وما كان ليحدث هذا إلا لخلل في فهم معنى الدين مهما غلف هذا الخلل بالشعارات وبالسمت الظاهر للسلف الصالح. خلل في التوحيد والسلوك أنظر لمضمار الولاء والبراء تجد الدليل.

نزع من العقيدة الشمول والحيوية ولم يترك لها إلا الدائرة النظرية طالما ظلت لا تكلف شيئًا، وإلا أعيد تمييع ما يلزم منه ثقل والله يقول ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

فأين هذا التوحيد بربك مع توحيد محمد ﷺ وصحبه الكرام وأبيه إبراهيم الخليل.

اضطراب عن الواسطية في مسائل الكفر والإيمان، رافع لواء العصمة يسراه ملوثة بغبار الإرجاء ويمناه ترمي بمشابهة الخوارج ثم اشتباك اليمنى مع اليسرى كاشتباك الخوارج والمرجئة، وبدلاً من الالتزام بما سطره سلف الأمة وعلماء التابعين ومن تبعهم من العلماء الأفذاذ وهم كثير جداً، نجد مؤلفات ونشرات هذا يكتب بالهيروغليفية رداً على النشرة المكتوبة بالسريانية.

واختزل ذلك المصطلح الشرعي الشريف (الفقه) في جزء منه (هام جداً - لكنه جزء لا كل) اختزل ذلك اللفظ النبوي في المصطلح الحادث فأصبح (هو معرفة الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية).

هذا هو الفقه وهذا هو الفقيه فأين هذا من حديث المصطفي ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»، فبهذا المفهوم ما هو الدين؟! وما هو نطاق سلطانه؟

صار علم القرآن تفسيراً هو علم الزهد، الزهد فيه لا الزهد للتفرغ له.

ويكاد يكون تعديل السلوك وقف على المبتدعة

وصار أهل الحديث هم أهل المصطلح، لا من عمل به في كل ميدان، ليشمل المكان والزمان والحياة والممات جنبًا إلى جناب القرآن ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وليس المقام مقام تفصيل إنما مقام إجمال.

ما نريد أن نقوله أن جل خلافات جيل الصحوة ليس خلاف بدعة / سنة بقدر ما هو خلاف ناتج عن ضعف تمثل منهج السلف الصالح من أهل السنة والجماعة في عناصره ونسبها من حيث الأهمية والأولوية واليقين بكفايته لكل واقع ونازلة.

يظهر هذا جليًا: في اختلال سلم الأولويات، اختلال في الموازنة بين الكليات، قصور في تصور الشمول والأولويات والموازنة لمن يرى أن هناك شيء أسمه الشمول والأولويات والموازنة.

والآفة الكبرى عدم إتباع العلم العمل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

أتحصد غير ما تزرع؟!

وتأمل حديث إرسال معاذ إلى اليمن يتجلى لك الكثير من هذا الخلل الشرعي المنهجي (داخل دائرة أهل السنة أنفسهم) خلل كان من نتائجه - ولا بد أن يكون - خلل مكافئ في مفاهيم التراص والتشاد والترابط بين كياناته.

وبدلاً من جسد واحد يتداعي أعضاؤه بالسهر والحمى إذا اشتكى منه عضو أصبح السهر والحمى هو النتيجة الطبيعية للحروب بين أعضاء الجسد الواحد.

فلا تجد على مستوى الكرة الأرضية وزنًا لأهل السنة والجماعة يتناسب مع عددهم وإمكاناتهم، مقارنة بالمبتدعة والرافضة وأهل الكفر وأصحاب المذاهب الأرضية - في وقت أصبح العالم كله قرية صغيرة - بل الذي تجده للأسف في القرية الواحدة حقيقة لا مجازًا على طول وعرض بلاد المسلمين صراعًا بين أهل السنة والجماعة صراعًا لا يشفع لأحد الطرفين أن يكون هو الأقرب للسمت الظاهر لسلفنا الصالح فإن الظاهر والباطن معًا هما دين الإسلام، لكن حرص السلف على الوحدة والائتلاف والأخوة لا يسبقه في

سلم الأولويات عند القوم إلا التوحيد والسلامة من البدع الحقيقية – الحقيقية فقط – فإن هؤلاء بصراعهم يؤدون في المال دوراً هاماً لخدمة المبتدعة بل والطواغيت.

ولن يشفع لأحدهم الجهل بهذه الحقيقة.

أين القدوة؟

هنا يبرز تساؤل هام هل هذا التشابه بين واقع الأمة الحالي والسابق – في مجال التشرذم وصعوبة الاضطلاع بالواجبات الشرعية تحت ضغط هيمنة عدو الإسلام الظاهر والباطن – يبرر الاقتصار على نموذج صلاح الدين كوصفة علاج؟!

الإجابة أن هذا غير مراد لأنه غير صحيح ! فهناك الكثير من الخير في كل تاريخ الإسلام وأعظم العبر ليست إلا في سيرة الصدر الأول الرعيل الأعظم.

وإن كان المتمكن من دينه يجد العبرة في كل تاريخ صادق، لكن تشابه الواقع لابد أن يدفع لمزيد اهتمام فإن السنن لا تتبدل ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٦٢]

﴿ اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِه فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣].

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح:٢٣]

التشابه هو ما دفع أعداء المسلمين للاهتمام بهذه الحقبة سواء من تلك الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس وباقي الكتلة الغربية وكذا أحفاد القردة والخنازير الآن.

أمة لها رسالة

أننا نواجه نفس التحدي بل أشد !

أمة الإسلام أمة المبعوث رحمة للعالمين تقاد من قبل عدوها منهم من جاهر و منهم من نافق، دمى تُحرك فتتحرك، هذه سيما السوط، زرقة القيد، صرخة العبد. فكيف يمكن أن يوجد من يصحح فيجدد للأمة دينها على منهج السلف، يوحدها على التوحيد مستجيبا لقوله عز وجل ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

فتنهض من كبوتها لتقول من جديد بقول خريج مدرسة رسول الله ﷺ ربعي بن عامر رضي الله عنه: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة).

كيف يمكن لكيان ما (أو اتحاد ما) أن يكون ذلك الربان الذي يقود سفينة الأمة بعد إصلاحها لتجتاز محيط التشرذم والضياع وتدفع أعاصير هيمنة العدو الخارجي ومكر العدو الداخلي.

ويُلزم البحارة بالطاعة والالتزام خصوصا في وقت الشدة والعسرة (في المنشط والمكره).

وما هي صفات ذلك الكيان (المنهجية، العضوية، الوظيفية)؟.

وهل يستطيع أن يقدم للأمة (نشطائها) برنامج عمل مقبول ومناسب؟

وما علاقة كل ذلك بنظرة أعدائنا لصلاح الدين؟